E. شرق أدنى الهضاب الشمالية |١٢٠٠ ـ ٧٥٠|

I. أشور، أرمينيا، إيران الغربية

بعد مرور موجة الغزو الشمالية العام ١٢٠٠ وبينما كانت مصر عاجزة ومنزوية، وفينيقيا تتراجع نحو الغرب، وفلسطين وسورية الداخلية ترهقهما الصراعات للسيطرة على الممر السوري-الفلسطيني، والبابليون والأراميون يتحاربون للسيطرة على بلاد ما بين النهرين السفلى، كانت شعوب جديدة تبحث عن فرائس، هي شعوب هضاب الشمال، منهمكة أيضاً في التقاتل في حروب لا تتوقف. وإن تلك هي الشعوب الأشورية والحثية الجديدة والفريجية والأورارتية (الأرمن المقبلون) والعيلامية والمادية والفارسية، التي كانت تتنافس فيما بينها على السيادة الإقليمية وتنشب بينها صراعات دامية. أما الأشوري الذي دأب طوال قرون عديدة على التدرب على الحرب فقد إنتهى إلى فرض نيره الفظ والدامي على هضاب الشمال وسهول الجنوب.

١ ـ مملكة أشور من العام ١٢٠٠ إلى العام ٩٠٠

كانت أشور بعد العام ١٢٠٠ مؤلفة من منطقة الموصل الحالية وجزء من كردستان. وأما نواتها المركزية فكانت بلاد دجلة العليا، وكانت أراضيها تمتد جنوباً حتى الفرات (منذ ١٢٦٠).

إن أشور، وبالرغم من أنها لم تتعرض مباشرة لغزو شعوب الشمال والبحر إلا أنها وجدت نفسها بعد ذلك الغزو محاطة بجيران محاربين ومشاكسين سواء منهم الحضر أو البدو: كموشكو وأورارتو (أرمينيا) في الشمال، والحثيين الجدد والأموريين والآراميين في غرب الفرات، وشعوب السوتو، والخابيرو ـ العبرانيين والخالدو والبابليين والعيلاميين في الجنوب، والكاسيين والماديين والفرس في الشرق.

إن الجبليين الأشوريين، وقد حرموا من حدود طبيعية وإنقطعوا عن أي منفذ على البحر وحوصروا من كل جانب بجيران صاخبين ومحاربين، حاولوا من خلال

سياسة إستعمارية وعسكرية التغلب على تلك الصعاب وتكوين أمبراطورية إقليمية قوية سوف تشكل نواة الأمبراطورية الأشورية الكبرى.

وبعدما شهدت بلاد أشور في عهدين عظيمين هما عهدا شلمنصر الأول وخلفه (١٢٨٠ ـ ١٢٦٠ و١٢٦٠ ـ ١٢٣٢ على التوالي) فترة مجيدة فإنها وبعد العام ١٢٠٠ شهدت نكسة كبيرة. ذلك أن أزمة سلالية شلّت إنطلاقتها لفترة طويلة. فقام البدو الآراميون المتمركزون على الفرات يفتكون من الجنوب في حين كانت بابل وعيلام تقومان بالضغط عليها، كل من جهتها. وإن العديد من الملوك التابعين لها تحرروا من وصايتها.

وفي أيام تغلت فلصر الأول (١١١٥ ـ ١٠٩٣) عاد النظام والقوة العسكرية إليها وإستؤنفت سياسة التوسع. وفي السنوات الأولى لحكمه صد هذا الملك الآراميين وإجتاز الفرات ووصل حتى البحر المتوسط في محاذاة جزيرة أرواد. وبعد هذه الغارة الخاطفة عاد تغلت فلصر الأول إلى أشور حيث شلت إضطرابات جديدة القوة الأشورية وتوسعها الخارجي على مدى قرنين من الزمن تقريباً.

٢ ـ الآراميون يهددون بلاد ما بين النهرين.

إن الكسوف الذي إعترى أشور بعد موت تغلت فلصر الأول وإنحطاط بابل قدما فرصة ملائمة لغارات الآراميين والعيلاميين. وخلافاً لآرامي الغرب (سورية) الذين كانوا قد أسسوا دولاً عدة فإن آرامي الشرق (بلاد ما بين النهرين) ثابروا على حياة البداوة وعلى غزواتهم للبلاد المزروعة. إن هؤلاء «الآراميين العصاة» كما يسميهم الأشوريون تراجعوا إلى بلاد ما بين النهرين وإستولوا على بابل ونصبوا واحداً منهم ملكاً عليها (حوالي ١٠٩٥).

غير أن هؤلاء الآراميين الذين أخضعوا بابل لم ينجحوا بإشاعة الأمن في البلاد. إذ وخلال حوالي خمسين عاماً ظلت القصور والمعابد والقلاع في بابل وحتى في أشور دائماً عرضة لسطو عصابات السوتو وسواهم من القبائل الآرامية.

وحوالي العام ١١٠٠ إستقر آراميو الشرق (بلاد ما بين النهرين) في منطقة المنعطف الكبير لمجرى الفرات حيث أسسوا بضع ممالك صغيرة. وحوالي العام ١٠٠٠ إجتازوا الفرات وبلغوا دجلة عند موقع بغداد تقريباً. وأما جنوب بابل فقامت قبائل آرامية أخرى هي الخالدو (الكلدان المقبلون) بتأسيس بضع دول صغيرة تتوزع حتى ضفاف الخليج العربي.

وحوالي العام ١٠٥٠ قامت سلالة ملكية من السكان الأصليين هي السلالة الخامسة في بابل، والتي قدمت من بلاد البحر (سومر القديمة) وقلبت السيادة الآرامية، ولكنها تنافست مع الأشوريين والعيلاميين على بابل. ثم تبعتها سلالتان ملكيتان هما السادسة والسابعة. وطوال تلك الفترة كلها (١٠٥٠ ـ ١٠٠٠) كانت هجمات الآراميين المستمرة تعكر صفو أمن البلاد.

وحوالي العام ٩٠٠ سيطرت القوة الآرامية على بلاد ما بين النهرين وحاصرت أشور وبابل وعزلتهما الواحدة عن الأخرى. وأما أمراء هاتين المملكتين، وقد جمعهم الخطر المشترك وبعدما كانوا حتى ذلك التاريخ أعداء، فقد وضعوا حداً لنزاعاتهم وعقدوا إتفاقاً عززوه بزيجات فيما بينهم.

وفي سورية فقد كان آراميو الغرب هم أيضاً أسياداً. فمملكة دمشق الآرامية، والتي تحررت من إسرائيل، باتت الآن على رأس الإمارات الأخرى في سورية وشرق الأردن.

٣ ـ مملكة أورارتو في أرمينيا.

إن الفترة التي تلت الإضطراب العرقي والسياسي العام ١٢٠٠ شهدت في الشمال الشرقي حول بحيرات «فان» في بلاد أرمينيا بروز دولة فتية وقوية هي مملكة أورارتو (أرارات). وهذه الدولة الجديدة التي ستصبح بعد أربعة أو خمسة قرون مملكة أرمينيا لن تظهر على مسرح التاريخ إلا في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. ولقد لعبت أورارتو بحكم معاداتها للأشوريين وابتداء من هذا العصر دوراً متحركاً.

إن الأورارتيين هم مكوّنون من شعوب آسيانية تعتبر إستمراراً للسكان الأصليين في الأناضول وأشور وسورية الشمالية وعيلام وإيران. وقد كان هؤلاء الأرمن المقبلون تسودهم وبدءاً من العام ١٢٠٠ أقلية من الشماليين المجهولين قد يكونون من الهندو ـ إيرانيين من أريانيا أو إيران.

وحوالي نهاية القرن التاسع دفع زوال القوة الأشورية بمملكة أورارتو إلى الصف الأول. وكان ملوك أورارتو الذين جمعوا القبائل المتفرقة في الأودية والهضاب تحت سلالتهم الملكية القوية، يمتلكون حوالي ذلك الزمن مدناً محصنة أوحت فرادتها الهندسية إلى الفرس عندما قاموا بهندسة مدينتي بازارجادس وبرسيبوليس. وبدءاً من عهد شادوريس الأول (٨٣٥ ـ ٨٢٤) مؤسس السلالة الملكية فإن ملوك أورارتو

أثروا من المناجم والمبادلات وطوروا جيوشهم وفرضوا سلطتهم حتى كبادوك وكيليكيا وهددوا وجود أشور التي كانت مهددة أيضاً من الجنوب.

«لقد أقام الفرس منذ دخولهم إيران على حدود تلك المملكة الدينامية الفتية ذات التنظيم الإقطاعي والتي سوف يستمدون من حضارتها الكثير... فإن دولة الفرس، وكما بلدان أخرى شمال غرب إيران، دخلت تحت سيادة هؤلاء السادة الجدد...

وراح الملكان إيشبويني ومينوا (ملكا أورارتو) يمدان فتوحاتهما جنوباً وشمالاً حتى تشكلت مملكة كانت مساحتها تعادل بل تفوق مساحة أشور مع كونها أكثر كثافة سكانية. وإن نقوشهم تظهر أن نشاطهم الحضاري لم يكن يقل مستوى عن إنتصاراتهم العسكرية، فأنجزوا أعمال ري جبارة بحفرهم قنوات ضخمة مبنية جزئياً من الحجارة، مما احدث تغييراً في أوضاع مناطق بأسرها وجعلها صالحة للزراعة. وقد تكون القبائل الفارسية قد رأت منجزاتهم حتى ألمّت بهذا الجانب من حضارتهم.

وفي أيام حكم الملك الأورارتي أرغيشتي معاصر شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤) إستمر الصراع بين المملكتين وكان دائماً لصالح أورارتو... وإن الملك أرغيشتي وهو فاتح من الطراز الأول، ضم كل البلاد المحيطة ببحيرة أورميا ومن ثم في إرتداده نحو الغرب أخضع لسلطته معظم الدول الصغيرة في آسيا الصغرى والتي كانت حتى ذلك التاريخ تابعة لأشور... لكن وصول شخصية مثل الملك تغلت فلصر الثالث إلى العرش (في أشور) قلب الموقف من جديد»[1] (٧٤٥ ـ ٧٢٧).

٤ ـ يقظة إيران الغربية، ظهور الماديين والفرس.

إن الشماليين أو الآريا الذين نفذوا في إيران في موجة العام ١٢٠٠ وتماماً كأسلافهم الذين جاؤوها في موجة العام ٢٠٠٠ إنما وصلوها بمجموعات كبيرة وعلى دفعات متتالية وعبر الطرق إياها: القوقاز وعبر أوكسيانيا. وإذ وجدوا المناطق الهندية يمسكها بقبضة قوية أسلافهم مهاجرو الموجة الأولى، فإن القادمين الجدد تابعوا إندفاعهم نحو الغرب بإتجاه إيران حيث الهجرات الآرية التي حصلت العام ٢٠٠٠ لم تكن كثيفة على النحو الذي يعطي البلاد هيكلية سياسية قوية.

1 R. Ghirshman, L'Iran, des origines à l'Islam, p. 76, 77, 78.

وقد أقام هؤلاء القادمون الآريون الجدد في مقاطعات جبال زاغروس على حدود الحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين، عيلام وبابل وأشور،وسوف نراهم قريباً تحت أسماء الماديين والفرس وسواهم. ولسوف يتطورون في تلك المنطقة. وبإمتزاجهم مع السكان الأصليين سيشكلون خلال الأربعة أو الخمسة قرون التالية الشعب المادي-الفارسي الذي سيُخضع لسيادته الحضارات الشرقية القديمة ويؤسس على أنقاضها أول أمبراطورية عالمية.

وفي ذلك العصر أيضاً فإن موجات الهجرة الهندو ـ أوروبية والتي تحركت، على ما يعتقد، للأسباب نفسها وإندفعت إلى إيران (الماديون والفرس) وإلى آسيا الصغرى (الفريجيون والدوريون إلخ. . .) أرسلت كذلك موجات في الوقت نفسه إلى أوروبا.

«إن السلتيين والإيطاليوتيين وجميعهم ذوو رؤوس مربعة، حلوا في أوروبا محل السكان الأصليين ذوي الرؤوس المستطيلة، كما فعل الهندو أوروبيون في إيران. . . وفي حوالي العام ١٠٠٠ غزا هؤلاء المربعو الرؤوس إنكلترا التي ظلت حتى ذلك التاريخ بلداً يسكنه ذوو الرؤوس المستطيلة وحسب. وقد أدخل أولئك المجتاحون معهم اللغات الهندو ـ أوروبية كما أدخلها الإيرانيون معهم أيضاً. ومن الوقائع التي لا تخلو من أهمية. . . أنه لوحظ تشابه في المفردات قائم بين اللغة الهندو ـ إيرانية واللغة الإيطالو ـ سلتية. كما لوحظ أيضاً أن اللغة الفارسية القديمة تنتسب إلى لغة الصقالبة البلطيقيين. . .

إن هؤلاء البدو، الذين غزوا أوروبا، كانوا كالإيرانيين رعاة. ومن المحتمل أنهم لم يكونوا يجهلون الزراعة. لكنهم كانوا مثلهم، على الأخص من مروضي الخيول ومربيها، كما أن خيّالتهم وعرباتهم التي تجرها الخيول أسهمت إلى حد بعيد في نجاح حملتهم»[2].

إن الهجرة الشمالية الكبيرة الأولى التي حصلت العام ٢٠٠٠، وبامتزاجها مع المجموعات الجغرافية المحليّة، نتج عنها، كما رأينا، ولادة الشعوب التاريخية من حثّيين وميتانيين وكاسيين إلخ. . . في آسيا الصغرى وسورية الشمالية وأرمينيا وإيران الغربية.

وأما الموجة الشمالية الثانية التي حصلت العام ١٢٠٠ فقد أعطت بدورها،

2 R. Ghirshman, *op. cit*, p. 59 et 60.

بسبب تمازج عناصرها مع السكان المحلّيين، شعوباً جديدة خلاسيّة والتي لدى استقرارها ستلعب هي أيضاً دوراً سياسيًّا وعسكريًّا وإقتصاديًّا وثقافيًّا كبيراً على مسرح العالم الشرقي. وهذه الموجة الثانية سيكون من نتائجها أن تنقل نحو الشرق الأدنى الآسيوي أو شرق الهضبات ولاحقاً نحو العالم الإيجي وإيطاليا، المركز السياسي للعالم المعروف. إن تلك الشعوب المقبلة هي: جبليو الهضاب الأشورية والأرمنية والإيرانية ثم جبليو مقدونيا واليونان والأناضول الذين تحوّلوا إلى الهلّلينية وأخيراً، رومان اللاتيوم في شبه الجزيرة الإيطالية.

أ ـ يقظة إيران على الحضارة

وفي حين أن موجة العام ٢٠٠٠ قد ضاعت عبر هضبة إيران حيث لم تنجح قط في أن تقود السكان الأصليين في هذه البلاد الواسعة إلى الحياة التاريخيّة، فإن موجة العام ١٢٠٠ كانت أكثر توفيقاً حيث أيقظت الشعوب الإيرانية التي كانت مستمرّة حتى ذلك التاريخ في حياتها الإنيوليتيّة،على الحضارة.

وإن الفترة التي تلت وصول الشماليين العام ١٢٠٠ إلى هضاب إيران، وهي الفترة التي استقرّ خلالها المزيج العرقي الناتج من اختلاط المهاجرين مع السكان الأصليين فإنها تنطبق بالفعل مع زيادة في استخدام الحديد الذي كان استعماله وبدءاً من القرن التاسع قد غدا مألوفاً أكثر.

«إن مناجم الحديد أبرزت البلدان التي لم تكن من قبل تلعب سوى دور محدود في المبادلات التجاريّة. وهذا القول ينطبق بالدرجة الأولى على شمال إيران والبلاد المجاورة لها. ومن إسبانيا وحتى الصين فإن تغيّراً كبيراً في العالم أدّى إلى انطلاقة تجارية كان لإيران دور فيها بالرغم من عدم وجود حدود بحرية فيها. وشاركت بالتبادلات التي وصلت غاليا (فرنسا) وبريطانيا من جهة وبلاد الهند وآسيا الوسطى والصين من جهة أخرى»[3].

وهكذا فقد كان الحديد أولاً، كما هو النفط في أيامنا هذه، قد أخذ يجذب نحو إيران مطامح الشعوب المتحضّرة ويحرّك شعوبها ويجذب إليهم التجّار والجيوش إلى أن يأتي يوم ينهض فيه الإيرانيون بدورهم فيطردون الاستعمار الأجنبي. وباعتمادهم أساليبه فإنهم سيصنعون أمبراطوريتهم الخاصة ويسودون أسياد أمسهم القدامى.

3 R. Ghirshman, *op. cit.*, p. 71.

ب ـ الحديد والخيول تجذب الأشوريين إلى إيران

إن الغزاة الأوّلين الآتين من الغرب الّذين وطأت أقدامهم الأرض الإيرانية هم الأشوريون. وكانوا يظهرون من حين إلى آخر على الهضبة الإيرانية طلباً للحديد الذي كانوا يفتقرون إليه، وللخيول الضرورية لقومهم، وفي الوقت نفسه لإخضاع جبليي زاغروس الذين كانوا يخرّبون حدودهم الشرقية. إن الملوك الأشوريين لم يحاولوا أبداً تحويل المناطق الإيرانية إلى مقاطعات تابعة لهم. وإن حملاتهم إلى تلك المناطق كانت في الغالب من نوع الغارات: فالمدن كانت تنهب أو تحرق والمعادن والخيول والماشية يتم نقلها إلى أشور.

«وهكذا وفي عهد أشور نازيربال (٨٨٤ ـ ٨٦٠) فإن الجيش الأشوري لم يكن بعد يعرف سلاح الخيّالة، حيث أن سلاح الصدم لديه كان عربات القتال التي كانت طريقة بدائيّة جداً، مما يحدّ من إنتاجيتها ويعطي تأثيراً معنوياً أكثر منه فعلياً. وقد كانت أدنى مستوى من خيّالة أخصامها وبخاصة في العمليات الجارية على الأراضي الوعرة مما هي عليه جبال زاغروس... وإنه ولمواجهة الخيّالة فلا بدّ من إعداد خيّالة بالمقابل وهذا ما لن يتأخّر في فعله الجيش الأشوري...

إن الخيّالة غيّرت بسرعة وجه الحرب: ففرق الخيّالة الخفيفة الأشورية التي كان هدفها، كما يبدو لنا، يرمي في الغالب إلى الإستيلاء على الخيول أكثر مما هو لاحتلال بلد ما، أخذت تتوغّل أكثر فأكثر في الداخل وراء جبال زاغروس»[1].

ج ـ استقرار الماديين والفرس والبارتيين

وحوالي منتصف القرن التاسع كانت قبائل فارس (بارسوا) ومادي (ماداي) ممّن تذكرهم الأخبار الحولية للملك شلمنصّر الثالث الأشوري (٨٥٩ ـ ٨٢٤) مستقرّة شرق مملكة أورارتو (أرمينيا). الفارسيّة منها جنوب غرب بحيرة أورميا، والمادية جنوب شرق تلك البحيرة. وفي الشرق البعيد كانت توجد قبائل زيكورتو، ويسميهم الأغارقة ساغرتيين، والبارتاوا وهم البارتيون المقبلون. وأما إلى الغرب والشمال من بحيرة أورميا فكانت تقوم مملكة أورارتو، وإلى الجنوب وعلى جزء كبير من كردستان الحالية كانت تقوم مملكة مانا. إن هاتين المملكتين كانتا تسدّان الطرق المؤدّية إلى الغرب أمام القبائل الإيرانية. بيد أن إيرانيين كانوا في صفوف جيش ملوك أورارتو: إذاً كان هؤلاء الملوك يجنّدونهم كمرتزقة.

4 R. Ghirshman, *op. cit.*, p. 73, 74.

وحوالي العام ٧٠٠ فإن الفرس، ربما تملّصاً من سيادة مملكة أورارتو أو إفلاتاً من ضغط الأشوريين عليهم، فإنهم هجروا المنطقة الشمالية الغربية من إيران واتجهوا نحو الجنوب الشرقي واستقرّوا في المنطقة الجبلية التي أعطوها اسمهم وهي بارسوا أو بارسوماش والتي ستصبح فارس المقبلة. وأما الماديون فظلّوا مستقرّين في جنوب غرب بحر قزوين، والبارتيون المقبلون في جنوب شرق ذلك البحر.

II. أشور والملوك الصغار السوريون ـ الفلسطينيون

١ ـ إرتقاء أشور

إن ردّ الفعل الأشوري الذي سيظهر بقوّة ويؤدّي إلى إعادة انتزاع للأراضي التي تحتاجها أشور من يد الآراميين سيبدأ مع أشور نازيربال الثاني (٨٨٤ ـ ٨٥٨)، «وقد كان هذا الملك أشدّ ملوك أشور فظاظة وربما ملوك التاريخ أجمع. فسابقه، وفي يوميات زحفه، كان يفتخر بأنه يسلخ جلود المهزومين، وهم أحياء، أو يرفعهم على الخازوق أو يسجنهم ويوصد الأبواب عليهم إلى الأبد. وأما أشورنازيربال الثاني فقد فاقه فظاعة بأشواط.

في حوالي العام ٨٨٠، كانت كل بلاد ما بين النهرين الشمالية في أيدي أشورنازيربال الثاني. «وفي العام ٨٧٧ دخل الملك إلى كركميش وصعد ضفة العاصي حتى حدود حماه، ثم انعطف نحو لبنان عن طريق وادي السروج، ووصل «إلى البحر الكبير في بلاد أمورو، حيث غسل أسلحته». وتسلّم جزيات من أرواد وبيبلوس وصيدون وصور (في عهد إيتوبعل الأول) وجزيات الأموريين: من ذهب وبرونز وأنسجة وخشب كما كان يتسلّم الفراعنة سابقاً. وأما بالنسبة إلى ممالك دمشق وإسرائيل ويهوذا والتي كانت يومها في ظل ملوكها: بن هدد الأول وعمري وأحآب وآسا فقد تجاهلها أو احتقرها، ولم تكن تلك الممالك بعد قد داخلها القلق، بالرغم من أن وصول الأشوريين إلى العاصي والمتوسط سيجعلها مباشرة تحت الخطر»[٥].

كان شلمنصر الثالث (٨٥٨ـ٨٢٤) ملكاً حازماً يشبه والده أشورنازيربال الثاني بفظاظته، وقد افتتح عهده بزحف عسكري ظافر على الجنوب ـ الغربي. ومنذ سنته

5 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, 675.

الأولى فإنه أخضع مملكة بيت عديني الآرامية على نهر الفرات التي كانت تسدّ عليه الطريق إلى سورية الشمالية وجعل منها مقاطعة أشورية ثم انكفأ نزولاً نحو العاصي والبحر حيث تقبل جزيات فينيقيا (٨٥٨).

أ ـ معركة كركر، نصر غير مؤكد (٨٥٤)

وبعدما دعّم هذا الملك سيادته على أورارتو التي كان أبوه شلمنصّر الثالث قد أخضعها العام ٨٥٤، اندفع بجيشه نحو كركميش وحلب ثم صعد ضفّة نهر العاصي. فلما شعر ملك حماه بأنه مهدّد مباشرة وقف في وجه المجتاح. وعلى الأثر تشكّل بسرعة تحالف واسع ضمّ ملوك الممرّ السوري ـ الفلسطيني الصغار. وكان من بين الذين شاركوا فيه ملوك دمشق وإسرائيل ومدينتي عرقا (شمال شرق طرابلس) وأرواد الفينيقيتين، وبلاد موسرو (كيليكيا) والملوك الحثّيون الجدد في سورية الشمالية فضلاً عن ملك آمون (شرق الأردن) وملك عربي هو جندبو قد يكون أرسل ألف جمل. وأما صور وصيدون فبقيتا على الحياد.

ووقع الصدام في كركر وهي مدينة تدخل في نطاق ملك حماه. وبالرغم من رواية شلمنصّر الثالث الفخورة، حيث يدّعي أنه أحرز نصراً ساحقاً إلا أن المعركة في الحقيقة كانت غير محسومة النتائج. فهذا الملك الأشوري لم يتمكن من الاستيلاء على حماه أو دمشق أو السامرة بل اكتفى بالنزول حتى البحر ثم انكفأ عائداً نحو قواعد انطلاقه (٨٥٤).

ب ـ شلمنصّر الثالث يهزم تحالفاً سوريًا ثانيًا

وفي العام ٨٤٩ ظهر شلمنصّر الثالث مجدداً على أبواب حماه، حيث سحق تحالفاً جديداً كان قد تألّف من ملوك حماه ودمشق والسامرة وملوك خاتو الإثني عشر. لكن النصر الأشوري ظلّ عقيماً على غرار نصر كركر. وفي العام ٨٤٦ وقعت معركة جديدة وانهزم خلالها ملكا حماه ودمشق. وبالرغم من الحرائق والمجازر وأعمال النهب إلا أن المهزومين عاودوا النهوض. لكن في العام ٨٤٢ فإن حزائيل الذي اغتصب عرش دمشق لدى موت هدد عازار هزم بدوره. واكتسحت ضاحية دمشق ونُهبت منطقة حوران. ثم نزل بعدها الجيش الأشوري نحو الساحل حيث عسكر في نهر الكلب شمال بيروت. وتلقّى جزيات صور وصيدون والسامرة التي أحضرت إلى المنتصر (٨٤٢).

وفي روايته عن الانتصار الذي حقّقه على ملك دمشق، فإن شلمنصّر الثالث يعلن باعتزاز: «لقد سجنته في دمشق وقطعت أشجار حدائقه وتوجّهت حتى جبال حوران... ثم انحدرت حتى شناخ (جبل داخل في البحر) باليرازي (صخور نهر الكلب) حيث أقمت تمثالاً عندها. ثم تسلّمت جزيات الصوريين والصيدونيين وياهو (ملك إسرائيل) سليل عمري»[6].

ج ـ شلمنصّر الثالث سيّد بابل

وفي تلك الأثناء وما بين العام ٨٥٢ وحتى ٨٤٢ فإن شلمنصّر الثالث حارب في جبال زاغروس حيث تورد حولياته وللمرّة الأولى إسم الفرس (بارسوا) والماديين (ماداي). وبعد جولة ظافرة إلى أورارتو (أرمينيا) استجاب لنداء ملك بابل، الذي كان أخوه قد ثار عليه، فأمر بقتل المطالب بالعرش وفرض سيادته على ملك بابل وأخضع بلاد بيت جاكين الآرامية الواقعة قرب الخليج العربي (٨٥٠). وهنا أيضاً تشير حولياته إلى الكلدان (كالدو) سكان تلك المنطقة والذين يظهر إسمهم للمرّة الأولى.

د ـ أشور، سيدة بلاد ما بين النهرين

شمشي أداد الخامس (٨٢٤ ـ ٨١٠) الابن الثاني وخلف شلمنصّر الثالث. فيما كان يقاتل ضد أخيه البكر ثم ضد ملك بابل الذي يدعمه الكلدان والعيلاميون وسواهم من الآراميين، فإنه مدّ سلطته حتى الخليج العربي. لكنه تخلّى عن كل المكاسب التي حقّقها والده في المنطقة السورية. وكان نهر الفرات هو الحدود الغربية لمملكته التي كانت تضم وادي النهرين بأكمله تقريباً.

إن زوجته سامورامات، والتي ستصبح وصيّة على العرش خلال السنوات الخمس الأولى لحكم ابنها، ستصبح الملكة سميراميس الأسطورية لدى اليونان.

هـ ـ الأشوريون ينهبون دمشق (٨٠٥)

وخلال تراجع هذا الفاتح الأشوري عاد الآراميون في كل من حماه ودمشق والإسرائيليون إلى التقاتل عوض الاتحاد لمواجهة ارتداد محتمل لهذا المحتلّ السابق. ونجح ملك حماه في ردّ هجوم شنّه عليه ملك دمشق.

وفي حين كان صغار الملوك السوريين في تناحر، كان الملك الأشوري أداد

6 Cité par Moret, *Hist de l'Orient*, II, p. 676.

نيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٢) العازم على إعادة أمبراطورية جدّه شلمنصّر الثالث يعبر بجيشه نهر الفرات ليستولي على دمشق ويسلب منها غنيمة كبيرة (٨٠٥).

«في دمشق... استولى ملك أشور على ٢٣٠٠ طالن من الفضة و٢٠ طالناً من الذهب و٣٠٠٠ طالن من البرونز و٥٠٠٠ طالن من الحديد وسرير من العاج وعرش من العاج وثروات لا تحصى». وانطلق منها نحو المتوسط حيث كانت الطريق مفتوحة أمامه. وهكذا يعلن أداد نيراري: «أخضعت بلاد خاتو وأمورو بأكملها وفرضت على بلاد صور وصيدون وعمري (إسرائيل) وآدوم وفلسطيا جزية ثقيلة»... لكن أي احتلال دائم لم يعزّز بعد هذه الانتصارات العابرة»[٧].

و ـ كسوف شمس أشور (٨٠٠ ـ ٧٤٠)

على أن صعاباً ظهرت في بلاد ما بين النهرين أبعدت الأشوريين عن سورية حيث لم يعودوا يظهرون فيها حتى العام ٧٤٠. وخلال تلك الفترة التي دامت نصف قرن تقريباً كان ملوك سورية وفلسطين الصغار يتابعون معاركهم الداخلية فيما بينهم.

ومن ذلك أن الإيتوا وهي قبائل بدويّة آرامية كانت تنهب أراضي أشور وبابل فتثير فتناً حتى في العاصمة الأشورية. كما أن أداد نيراري الثالث وخلفاءه الذين عكفوا على مقاتلتهم كان عليهم مواجهة الماديين أيضاً الذين كانوا يهدّدون الحدود الشرقية لأشور وملك أورارتو في الشمال. لذا انهمك شلمنصّر الرابع وأشوردان الثاني وأشور نيراري الرابع الذين توالوا على العرش من العام ٧٨١ إلى العام ٧٤٦ في صدّ هجمات هؤلاء المجتاحين أو قمع التمرّدات.

ز ـ تأسيس الأمبراطورية الأشورية

وفي العام ٧٤٥، فإن تغلت فلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧) وهو ملك حازم وأحد أكبر ملوك الأشوريين ارتقى العرش. وقد تميّز تسلّمه الملك بانتهاء الاضطرابات وبلوغ ذروة التوسّع والقوة الأشوريتين.

ودشّن تغلت فلصر الثالث أسلوباً جديداً في الحرب والسيطرة أتاح له تحطيم أعدائه واحتواء الشعوب المنهزمة.

«كانت أشور قد أنهت تدرّبها على الحرب. وبدءاً من تغلت فلصر الثالث باتت

7 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, p. 677.

تعرف كيف ترسي سيادتها على آسيا الغربية. صحيح أن الطابع الحربي لاعدائها من آراميين وحثّيين جدد وفريجيين وماديين كان لا يزال مخيفاً، لكنها سوف تواجههم بأساليب جديدة في الغزو...

فقد صار المهزومون بعد الآن يعاملون بوحشيّة مطلقة: الملوك تقطع رؤوسهم... المحاربون يقتلون جماعيًا، الشعب المدني بمعظمه يُنفى إلى مناطق بعيدة لكي تقتلع كل مقاومة من موضعها، ثم تقام مستوطنات للأشوريين أو البدو السوتو أو الماديين أو العرب في كل المدن أو الأرياف التي خلت من سكانها. وفي البلاد التي صارت هكذا مأهولة بعناصر أمينة أو جدّ معزولة مما يمنعها من القتال والاحتفاظ بعقليتها القديمة، فإن الحكم لم يعد حكراً على الأمراء المحلّيين الذين يثيرهم حب الثأر والشعور القومي، بل صار يسند إلى قادة جيش أشوريين، فيجبون ممن تبقّى من العرق القديم ومن المستوطنين جزية سنوية ضخمة ترسل إلى العاصمة، ويفرضون لصالحهم على الأهالي فضلاً عن ذلك، أعمال سخرة وضرائب ساحقة. هذا هو النظام الذي فرض على البلاد المحوّلة إلى مقاطعات أشورية»[8].

وخلال عشر سنوات (من ٧٤٠ ـ ٧٣٠) هزم تغلت فلصر الثالث أورارتو واستعاد مدينة دياربكر وسحق الآراميين والناباطيو واستولى على إمارات الحثّيين الجدد في سورية الشمالية واحتلّ دمشق وأخضع فينيقيا وضمّ بابل وأسّس الأمبراطورية الأشوريّة الكبرى التي ضمّت جميع بلدان الهلال الخصيب.

«إن تغلت فلصر الذي أعاد توحيد جزئي بلاد ما بين النهرين أضاف إلى لقبه «ملك سومر وأكاد» لقباً جديداً هو: «ملك الأقطار الأربعة» وشاركيشاتي. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تبرر أمبراطورية سامية هذا اللقب البروتوكولي باحتلالها الفعلي للنقاط الأربع الرئيسية في آسيا الغربية»[9].

٢ ـ تكوّن العالم اليوناني ـ الإيجي المقبل

وفي آسيا الصغرى كان الآخيون وسواهم من اليونانيين الأوّلين الذين طردوا من اليونان بعد موجة هجرة العام ١٢٠٠ على يد المجتاحين الدوريين، قد استقرّوا على سواحل الأناضول حيث كانت مجموعات أخرى من عرقهم قد استقرّت قبلهم.

8 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 678.
9 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 682.

وقد بدأت منذ العام ٢٠٠٠ هجرة هؤلاء اليونانيين ـ الأوّلين نحو المناطق الشرقية التي سوف تشكّل اليونان الآسيوية، وستستمرّ خلال القرون التالية. كان الأغارقة الأوروبيون القادمون جماعات كبيرة يحملون معهم آلهتهم وثرواتهم وتقاليدهم وحضارتهم الآخية ـ الميسينية. وإن اليونان الآسيوية ستصبح وريثة ميسينا وكريت.

إن المجموعات الثلاث الرئيسية من هؤلاء المهاجرين استقرّت كل منها في منطقة مواجهة للمنطقة اليونانية التي غادرتها لتوها. فالآخيون والأيوليون استقرّوا في الشمال بين الدردنيل وإزمير. وكان مركز تجمّعهم الحقيقي هو في جزيرة ليسبوس الكبرى مع مدينتها ميتيلينا، وأما الأيونيون فاستقرّوا في وسط الواجهة الأناضولية حيث مدينة ميلت المتمتّعة بشهرة خاصة. وأخيراً فإن الدوريين استقرّوا في الجنوب محتلّين الرأس الجنوبي من شبه الجزيرة وفي كريت ورودس. وهناك مجموعات أخرى انتشرت شمالا وأهّلت كل المنطقة الساحليّة من آسيا الصغرى، أي تلك التي على ضفاف بحر مرمرة والبحر الأسود فضلاً عن داخل الأناضول.وأسّست مدينة بيزنطيّة على البوسفور.

إن اليونان الآسيوية هي التي ستكون مهد الأدب الإغريقي: الشعر، الملحمة، الفلسفة. ففي تلك الربوع، وبخاصة في أيونيا، وفي وقت كانت فيه اليونان ومنذ العالم ١٢٠٠ ما تزال تعيش في ركود دامس، ظهرت حوالي العام ٨٥٠ القصائد الهوميريّة. وهناك سبع مدن في آسيا الصغرى كانت تتنافس فيما بينها للإدعاء بأن هوميروس ولد فيها.

إن الحضارة الهلّلينيّة الأولية التي ولدت على ضفاف آسيا الصغرى والتي انتهت في اليونان نفسها كانت وريثة الحضارة الميسينيّة التي هي بدورها وريثة حضارة كريت. وهذه الحضارة الأيونية ستتأثّر كثيراً بحضارة شرق الأناضول المتّصل ببابل. إذ إن أيونيا كانت متّصلة بالشرق الآسيوي والقاري عن طريق أودية الأنهار التي كانت تشكّل طرق عبور نحو الداخل. «وبواسطة طرقها هذه، فإن أيونيا هلّنت ليديا وفريجيا، وهاتان «شرّقتا» أيونيا وكل العالم اليوناني» (ج. غبريال ـ ليرو).

٣ ـ كيليكيا، قبرص

في كيليكيا ومنطقة أضنه كان السكان مختلطين. لكن الوضع الإستراتيجي والتجاري لتلك الأراضي كان يجتذب الشعوب المجاورة ذات النزعات الى السيطرة: الحثّيون الجدد، القراصنة الآخيون، وأخيراً الأشوريون.

أما قبرص فستكون آخية ـ ليقية في جزئها الشمالي وفينيقية في جزئها الجنوبي. وبعد التوسّع الأشوري فإنها ستكون تابعة لنينوى.